عهد لم يطل

بين الكأس والوتر

للأستاذ فؤاد بليبل

وهذا شاعرنا يحدثك بلسان الشارب المطروب ، عما تثيره الخمر فى الأجسام من مرح ، وما تضفى على المجالس من إيناس وسرور ، بعد أن يصف لك الكأس والشراب والندمان أبرع الوصف وأحسنه ، ثم يعود فيحدثك بلسان المجرب الملول الذى تكشفت له مضار الخمر وجنايا تها على العقل والدين والكرامة ، فى أسلوب قوى زاخر ، وبين هذا وذاك يجلو لك من معانى الحياة أروع الصور ، فالقصيدة أدب وخلق ودين واجتماع :

أبرمت عهدا جديدا طيب الأثر ... بين القوافى وبين الكأس والوتر
أهبت بالشعر فانقادت شوارده ... فى محفل بعذارى الوحى مزدهر
أصوغه من شعورى غير مدخر ... من سانحات القوافى أى مدخر
حررت ربقته من كل شائبة ... فما فتنت بمعنى غير مبتكر
ولا دعوت الى التجديد معتصما ... منه بكل غريب السبك والصور
ولا هذيت بأبيات أرددها ... من كل مضطرب صعب القياد زرى
ولا اعتديت على الأنغام " أشنقها " ... ولا "صلبت الدجى فى دوحة القدر"
ولا شريت "شعاع الشمس فى قدح ... من اللهيب ، ونحو الشمس لم أطر"
ولا "ركعت بمحراب الغرام على ... عطر من الوله النسكى مستعر"
إن يحر بالأدب الغربى طابعه ... فالشرق بالطابع الغربى غير حرى
شوارد الضاد شتى لاعداد لها ... ليست فرائدها ملكا لمحتكر
فاختر لشعرك منها ماينا سبه ... واحرص على جودة التركيب أو فذر
دع القلائص والأحداج مكتفيا ... بما يلائم روح العصر واقتصر
فالشعر إن لم يساير روح نهضته ... كالغصن جرد من نور ومن ثمر
إن يصب غيرى فإنى ما صبوت الى ... عهد النجائب والوخادة البتر
ولا تقدمت عصرى فى تقدمه ... ولا تأخرت عن عصرى فلم أسر
ولم أقل إن جفتنى من أهيم بها : ... ياقلب ذب ألما ، يا أدمع انهمرى

بات المعنى طريد الهـم مكتئبا ... وبت فى الحان خلو البال والفكر
وهى فلم يستطع صبرا ولا جلدا ... وما وهى جلدى أو عيل مصطبرى
ولا وقفت على الأطلال أندبها ... ولم أعج بخيام الحى من مضر
ولا أثار شعورى رسم دارسة ... مالى وللبيد ، والأطلال ، والحفر
وللكؤوس التى مافى قرارتها ... إلا شعاع الضحى أو مدمع الزهر
مالى ولقدح الرمزى لا وقعت ... عينى عليه ، ولم يعلق به بصرى
اترع لى الكأس صرفا واسقنى عللا ... على شفا جدول بالزهر مؤتزر
وهاتها علنا صهباء صافية ... طال الإسار بها فى سجنها الأسرى (١)
زجاجة لو درى الخمار قيمتها ... أمسى عليها شديد الحرص والحذر
قديمة العهد ما فضت بكارتها ... طاف الحباب بها كالأنجم الزهر
تدعو الشفاه الى تقبيل مبسمها ... بسائغ من دم العنقود معتصر
كم دار فى خلدى ما زادنى شغفا ... بها ، وفى خلد الخمار لم يدر
تخالها فى وعاء الثلج نائمة ... وسنى على مضجع من مائه وثر
حتى إذا نضحت من برده عرقا ... لها على السكب فى الأقداح قهقهة
أتشعل الجسم نارا وهى باردة ؟ ... فيا لمقرورة أورى من الشرر !
من لى بعذر فأنساها وقد عذبت ... طعما فما تركت عذرا لمعتذر
تديرها غادة هيفاء فاتنة ... تغنيك طلعتها عن مطلع القمر
ما أنس لا أنس يوما زرت حانتها ... فى جنح ليل عليل النجم معتكر
يقودنى نورها والشوق يدفعنى ... دفعا لأقضى من لذاتها وطرى
دخلت فاستقبلتنى من مفاتنها ... بفائح من عبير الخمر منتشر
ورائح من دخان التبغ تحسبه ... سحبا من الغيم قد أشفت على المطر
والقوم ما بين مذهول ومنسجم ... وماجن قد سلا الدنيا ومفتكر
دقوا الكؤوس وراحوا يضحكون لها ... ما بين مختبل يهذى ومفتخر
تناثروا شيعا فى العيش واجتمعوا ... حول الزجاجة عقدا غير منتثر

---

(١) الأسر بالتحريك لغة فى الزجاج

جلست متزويا فى ركن حانتها ... وبادرتنى بلحظ الفاحص النكر (١)
وبادلتنى سلاما ليس يفهمه ... إلا اللبيب وإلا كل مختبر
وجالستنى وهشت غير حافلة ... بغير حملى على الإسراف فى السهر
واستدرجتنى الى ما لست أذكره ... وافتر ضاحكها عن لؤلؤ نضر
لها حديث يثير الوجد ماجنه ... تفريك رقته بالشرب والسمر
ومبسم حينما مالت به تركت ... من صبغه أثرا يغنى عن الخبر
كأنه بدم العشاق مختضب ... عذب المقبل أما رشفه فمرى
غنيت عن كل نقل (٢) بابتسامته ... وما تضوع من فواحه العطر
وأعين القوم لا تنفك ترشقنا ... بأسهم لم تطش من لحظها الشزر
حسناء ما خاطبت عينيك مقلتها ... إلا أخذت بما تحويه من حور
إن تنضب الكأس لم تنضب مراشفها ... أو غارت الشمس لم تأفل ولم تغر
ترنو اليك بعين الريم باسمة ... وتستبيك بلحظ الجؤذر الحذر
شفافة الثوب لم تستر به جسدا ... إلا لتظهر منه كل مستتر
تدل فى خفر وهى التى جمعت ... كل المفاتن غير الدل والخفر
تلامس العود كفاها فتنطقه ... كأنما العود لم يقطع من الشجر
ويرسل الآه من أوتاره نغما ... فكيف لو عبثت بالشارب السكر
تكاد ألحانها تبكى ولو رغبت ... لأضحكتك بالحان لها أخر
وللصبا (٣) رقة هيهات يعرفها ... إلا حليف الصبا (٤) من تلكم الزمر
وللبيات (٥) رنين كاد ساحره ... يذيب حتى صميم الصلب والحجر
كأنه ترجمان المعجبين بها ... يروى لها عن هواهم أعذب السير
ما أروع العود لو هاجت بلابله ... فى حجر غانية وضاحة الغرر !
فاستلهم الكأس أو فاستوح مقلتها ... تجد من الشعر لينا غير منتظر
ما زلت فى حيرة منها وفى عجب ... حتى انتشيت فلم أعجب ولم أحر
ورحت فى شبه إغماء كأن يدا ... شدت على عنق فى عنف مهتصر

---

(١) الفطن . (٢) ما يتنقل به على مائدة الشراب من البندق والفستق ونحوه .
(٣) نغم من أنغام الموسيق . (٤) الوجد . (٥) نغم موسيق .

هل مادت الأرض فاهتزت بأهلها ... أم أنها لم تدر أم خانني نظرى ؟
وقمت أخطو كما يخطو الكسيح وقد ... خارت قواى ولولا السكر لم تخر
وعفت كأسى فقالت لى وما صدقت : ... اشرب ولا تخش لوم العاذل الأشر
وقل : هى الخمر كم طابت لشاربها ... واصرع بها دولة الأحزان والكدر
لو أنها ضرر ما قال خالقها : ... فيها منافع لا تخفى على البشر
ولم يمنّ التقاة المؤمنين بها ... ولا جرت من جنان الخلد فى نهر
ولم تعتق بدير وهى مسكرة ... ولا تجرّعها الرهبان فى السحر
ولا أباح لنا عيسى تناولها ... وقال هذا دمى ما فيه من ضرر
فقلت حسبك هذا الكفر فاتئدى ... فإنما الخمر إثم غير مغتفر
ما سر مشربها حتى استحال أسى ... كفى به خطرا ما فيه من خطر
كم من غنى صحيح الجسم عاقرها ... فغادرته عليلا جدّ مفتقر
وكم فتى أيّد كالليث مقتدر ... عافته وهو هزيل غير مقتدر
كم زوجة سلبتها زوجها فغدت ... على الطوى والأسى والسقم والضجر
كم طوّحت بفتى مثلى وكم طرحت ... كؤوسها فى حنايا السجن من نفر
أثيمة الوحى كم من عادل لعبت ... به ، بقار ولولا السكر لم يحر
هل فى الزجاجة غير السم تحسبه ... ماء تحلب من مستنقع قذر
لها لدى السكب فى الأقداح حشرجة ... كأنها زفرة من صدر منتحر
قديمة العهد ما فضت بكارتها ... كهانس كسدت من شدة الكبر
تخالها حية فى الثلج كامنة ... فى مسبح عكر من مائه العكر
ما كنت أعلم أن السم خامرها ... حتى سقطت صريعا شبه محتضر
لا بارك الله بعد اليوم فى قدح ... ولا لمّا لهواة الغى والدعر
ولا ملام على ما جئت من نكر[1] ... أغراك بالسكب ما أغراك بالنكر
تالله لولا فساد الناس قاطبة ... لما اندفعت بهذا المسلك الوعر
وعدت عنها ونفسى جدّ دامية ... مما رأيت وقلبى جد معتبر
كفى بها عظة ما بعدها عظة ... وحسبها أنها من أبلغ العبر
لقد تيقنت أن الخمر مهلكة ... ورحت أبكى على ما فات من عُمُرى
وقلت حين طرحت الكأس ناحية ... أبرمت عهدا جديدا طيب الأثر

فؤاد بليبل

(١) لغة فى المنكر .